٥ - رحلة إلى ديار الروم

للسيد مصطفى البكرى الصديقى

للأستاذ سامح الخالدى

في الطريق الى القاهرة :

وبعد الشمس قطعنا الصخور وبان بان الجفا والشرور ، ولم نزل نقطع بحيرة ، وقرية قرية ما بها طيرة ، إلى أن وصلنا باسماف اللطيف الخبير، إلى محل بالإمداد مطير ، كاد لولا المونة والتبشير ، تحصيل الانقلاب فى الطيار الكبير ، ورجفت القلوب واتسع رتق الخطوب ، وكان الليل دهم وزاد الهم ولم نتم إلا اليسير، لغلبة وارد ، وهم مبير ، وخرجنا فى الصباح المنير للبر المبر بأهله ، وانتظرنا الماش، ولحقناه فى قياسة ، بانتعاش، وطاب معنا الريح المريح ، إلى أن وصلنا إلى (مونسه) وبتنا بها بليلة مؤنسه ، وزرنا من حولها من سادات وأعيان ، ثم إنا خرجنا إلى البر تروح النفس بمشاهدة ملك البر وأردنا أن نسير على ظهور الخير، نحو (بولاق) لعظم اشتياق ، فرأينا المركوب لا يركب ، فعدنا إلى المركب ، ثم سرنا إلى أن سامتنا (وردان) الساحبة بمارها على غيرها ذيل الخيرات وزرنا رجالها السبعة الفائقين على النجوم السيارة والميزان . ثم خرجنا إلى (بحر التضامى) وحزت بزورته برا مراعى، ثم وقبل أن وصلنا (بحر الحسين) قرأنا الفاتحة لسيدى إبراهيم ساكن الجيز ومن حوله من سادات له على الغير مبز، ولما وصلنا المجر ، خرجنا ثانيا إلى البر، وسرنا وقد طاب المسير، إلى القاهرة ذات الوجه المنير ، وبهجوم الليل واختلاف الميل حولت الماشات إلى ناحية البر، ولقد لهم حسن المقام والمقر ، وبتنا فيه والبسط يصافحنا فتسامر مع الإخوان ، ما يكون وما كان، وعلت أصوات الملاحين، بالنغمات المصرية والتلاحين، وغنى محمد الدفة مواليا فى المديح النبوى له حقه فاستمدناه وكتبناه وهو :

خذنى معك يادليل الركب يامنصور ... أزور قبر النهامى فج منه النور

قال الدليل ياسبى تقدر تدوس الدور ... قلت عيان زى يجبر المكسور

وثنى فقال :

للقرص صاحب الشيبه كتم مابح ... نايم حبيبو على فخذه وهو مرتاح

نزلت دموعو فقال لو ليش تبكى ارتاح

قال لو قرصنى الحنش فى العقب يامصباح

قال النبى للحنش لم صبت صديق ... ذا مؤنسي فى ظلام الليل ورفيق

نطق الحنش للنبى بلسان تحقيق ... قال لو أنيت الزيارة وام تعوبق

« ثم إنا لما أشرقت الغزالة، على وجه أخت الخالة، سرنا باللبان إلى أن أتينا بطن البقرة ، فاستمدنا بالله من هوله متوسلين بسورة البقرة

في بولاق ، وقصور الاخوان والمجاورين فى الأزهر :

« ولم ندخل بولاق إلا بعيد العشا ، وعلينا ضوء القمر مد رفشى، وما استقر بنا المقام غب الوصول للمقر المكين، حتى ورد علينا إخوان من المجاورين منهم الشيخ أحمد الأشبولى الزين ، وإسماعيل افندى وغيرهما من محبين ، وسرنا معهم (لتكية الأعجام) وبتنا آمنين بحفظ مكين، وفى الصباح وفد الأخ المداوى الشيخ محمد الحفناوى ، ومعه أحباب لهم لحبل الود انتساب ، ودخلنا ونحن فى سرور المدينة ، ونزلنا الجناب العالى مقام السيد السند الأوحد الحسين ، ونزلنا (وكالة محسن الجديدة)

قبعث بأخيه وابنه إلى أهل العراق الثائرين يعرض عليهم شروطا للصلح تقوم على عزل الحجاج عن العراق وتولية ابن الأشعث مكانه فرفض الثوار شروط الصلح رفضا باتا ، فأخذ الحجاج يقاتل الثوار برغم ما تركته محاولة عبدالملك الصلح مع الثوار فى نفسه من الألم

جرت بين الفريقين حروب كثيرة ومعارك حامية الوطيس فى دير الجماجم بالقرب من الكوفة كانت نتيجتها انهزام جيش ابن الأشعث ففر ابن الأشعث إلى بلاد رتبيل فدخلها لاجئا وعاد الحجاج إلى ما كان له من سلطان فى العراق

وكان من أمر ابن الأشعث أن قبض عليه رتبيل وقتله وقبض على أهل بيته وأرسلهم مع رأس عبد الرحمن إلى الحجاج كسبا لرضاته

عمرى الحسينى

وبتنا بها ليلة الأربعاء ثم بتنا ليلة الخميس بسطوافر وذهبنا بحتها الديماس، مع إخوان لهم طيب أنفاس، ورد فيه علينا أحباب أجله، من كل واله ومدله، وفيه أخذ الطريق واندرج فى سلك أهل هذا الذيق، الشيخ أحمد المقدم، والسيد نجم الدين الخيرى(١) الأقدم، والسيد حسين المحلى (٢) القدسى، والشيخ محمد المغربى محتسين الكأس الأنسى، ثم أخذ الشيخ أحمد الشرقاوى. ثم إنا بتنا ليلة الجمعة ذات الإشراف واللمعة، وكاد أن يمنعنا السحاب، من الخروج إلى صلاة الجمعة، بجمع الأحباب، ثم إنا صلينا فى جامع قريب من المحل، يعرف (بالجامع الجمالى) وفى عشية يوم السبت المطار أخذ الأخ الشيخ محمد الزهار، وغيره من الأخيار، وفى يوم الأحد أخذ الشيخ أحمد العروسى، ثم حضر الأخ الشيخ محمد الحفناوى؛ وسرنا معه إلى زيارة السيدة نفيسة ذات الكأس الداوى، ومعنا جماعة لكل خير جماعة، ممن أخذ الطريق، وغيرهم من محب هذا الفريق، ولما خرجنا من باب النصر، دخل وارد السرور القلب وحل ذلك القصر، وما زلنا كلما مررنا على مرقد ولى ملى، نبسط كف الطلب ونترجى فيض العلى، إلى أن حاذينا (قلعة الجبل) وحكمنا أنها تقرب من القدس النافية الخبل، وما زلنا نتفرج ونتدرج ونقرأ الفواتح إلى أن وصلنا دوح روضة حضرة السيدة النفيسة، الدينة نفيسة، وكنت امتدحت جنابها لأشواق رسيسة، وأثبته فى (الخلة النصرية فى الرحلة المصرية)

« وعطفنا على زيارات كثيرة، وأحباب أقدارها كبيرة، وعجبنا على حانة أرباب الصدق والتصديق، من أسلافنا بنى الصديق، وجلسنا عندهم حصة يسيرة، لتمسى بهم الأمور العسيرة يسيرة، وزرت فى هذه الكرة المنيرة العم المرحوم أحمد افندى

استمرار الشيخ في نشر طريقته فى مصر

« ثم أكرمنا على زيارة الأعلام ومنهم أشهب بن عبد العزيز العامرى المصرى، وسيدى عبد الرحمن بن القاسم ومنهم إصبع ابن الفرج، وأبو جعفر أحمد بن محمد بن سلمة الأردى المصرى الطحاوى، ومنهم أبو بكر أحمد الدقاق، وإسماعيل المزنى والشيخ شاهين والشيوحى وغيرهم، ومنهم سيدى عمر بن الفارض، وزرنا الجلال المحلى، وكان يوم مولده الذى ما مر من عيش به يحلى، وزرنا الجلال السيوطى، وسيدى إبراهيم الجعبرى، وابن رفاعة، من فيضه فيض بنى رفاعة، وعدنا للأماكن

« وكان الشيخ يوسف الحفنى (أخو الشيخ الأمجد الشيخ محمد) جانى بقصيدة فريدة وعدته بإثباتها فى هذه الرحلة، وجعلت جائزتها الإجازة بما أجازنى به كل رحلة، ومطلعها :

(سرائر سر السر بالحال تعرب وداعى التجلى بالمدائح يطنب)

وأما الإجازة التى جعلتها الجائزة المفيدة الخ فصورتها :

(لربى حمدى ماله أتقرب وشكرى مامنه أخاف وأرهب الخ)

« ثم أخذ طريق الأخيار الشيخ على شقيق الشيخ محمد الزهار، والشيخ موسى والد العروسى، وإسماعيل افندى، والسيد حسن نجل السيد محمد الفشفشى، وتقدم الشيخ حسن اليمنى وطلب الإجازة لفاضل نبيل اسمـــه الشيخ إسماعيل بن غنيم فأجزناه ثم التحق بالطريق

« وفى يوم الاثنين دعانا محب زين، يدعى أحمد افندى، فقصدنا زيارة سيدنا ومولانا الحسين

« وبعد تمام الزيارة، ودعته وأودعت قلبى لديه، فتلقانا جناب العارف بربه الشيخ أحمد الدلوى، وأخبر أنه كان مقصده الاجتماع، ثم بعد السلام والمصافحة، قرأنا الفاتحة، ودعا بدعوات الأحباب، فسررت بدعائه ورأيت عليه أبهة الصالحين، أهل القرب الفالحين، وحمدت على هذا التقارب العالمين

« وتطلبت النفس الاجتماع، جناب الشيخ محمد العياشى فعرض له بعض الحواشى، بالجمعية بالفقير، فقال لحجة فى عدم الظهور سيما فى هذا الزمان الغادر الواشى، وحصل الاجتماع فى الباطن فقبلنا هذا الاجتماع الموروث انتعاشى

« وفى يوم الثلاثاء دعانا لداره المحب المتين الحاج على بن المرحوم الحاج فخر الدين، وفى ليلة الأربعاء دعانا أولاد العالم العلامة الشيخ عبد الرؤوف البشيشى، وهما الشيخ محمد والشيخ على

---

(١) مفتى الحنفية بالقدس توفى سنة (١١٧٣ هـ)

(٢) ترجمه حسن بن عبد اللطيف الحسينى فى كتابه « أعيان القدس فى القرن الثانى عشر » قام مقام شيخ السجادة البكرية بمصر توفى بالاستانة سنة (١١٩٦ هـ)

في الجامع الأزهر :

« وزرنا الجامع الأزهر ، وصعدنا الرواق الشامى الأبهر ، ودعونا للساعى فى عمارته بنيل العمار فى دنياه وآخرته

وذهبنا بعد أكل ضيافتهما لحمام صديقنا الحاج محمد الحب الأوحد ، وزارنى فى محل قرارى ، جناب الشيخ عبد الله الشبراوى وطلب الإجازة والدعا لولده الشيخ عامر ، وأخبرت أن صديقنا الأقدم ذى المقام الإحاطى ، الشيخ أحمد الإسقاطى ، شرف المحل يوم توجهنا للزيارة فلم يقسم نصيب بالاجتماع لسوء الحظ

« وقد ورد علينا جمع من المجاورين ، وأخذ كل منهم الطريق لفرط حب متين، وغيرهم من أحباب ربما يبلغ عددهم الأسنى عد الأسماء الحسنى ، أو يتوف على عدها ويزيد

الطريق البرى الى القدس صحبة الوزير المشير عثمان باشا

« وكنا أكربنا مع الحاج خليل العريشى صحبة الوزير المشير عثمان باشا (٣) لفصل التيسير ، وتوجهنا بعد ظهر الخميس، الرابع عشر من شعبان المبارك التأسيس، وودعنا الإخوان منهم داخل البلد ومنهم خارجها لفرط حب مصان ، وبتنا لدى (بركة جامع العرب) منفردين . ولما صاح النفير من طرف الوزير ، تأهبنا للسير ، وسرنا غب صلاة الصبح بيسير إلى (الخانكة) بوجد منير ، وبتنا فيها ، ثم إنا سرنا إلى (بلبيس) فقلت :

ثم سرنا إلى فنا بلبيس تتهادى فخراً كامرئ قيس
وتلاقيت بالصديق الأنيس ذا خليل مفتى حمى التقديس
ثم زرنا (النوادى) خير نفيس وبها بت مثل نوم عروس

وتأخر بعض الخدم عن أمر يلزم ، فقلت نجاك الله من شره ولا نجاك من بره ، وأغرقك فى طمطام فضله، وأمرفك من خزام وصله دون فصله

ورحلنا بهمة للقرين أترجى إسلام شر قرين

وإلى صالحية قد سرينا وأقمنا يوما لراحة عين
وقرأنا للحاجرى قبل نأتى حانها فاتحات أبواب زين

نخيل الصالحية

« وفى الصالحية من النخيل ، ما يحيل العقل البخيل أن يضاهيه ، مثيل لكن به نخيل ، عند ذوى الأعراق ، أنه يقارب كثرة سواد العراق ، وفيها طائفة الصوالحة ، التى نفوسهم للتأديب غير صالحة ، وأخرى تدعى القصاصة ، المؤرقة للمارة الفضاضة الغصاصة ، والعجب من حكام ، ما لها فى معرفة التدبير أحكام ، ولا سعى ورعى فى تأمين البلاد، وتسكين متحرك غض الشر الميادّ ، ولا عدل فى الأمور ، بل عدل عنه إلى جور يجور ، ونرجو من المنان الغفور الحنان الشكور ، أن يسهل حزن هذه الصخور ، بمحو أهل الضلال والفجور ، وأن ينظم شمل العدل فى الأحكام الموفور النور ، على يد المؤيد المظفر المنصور من السلام، المعيد لوطنه الإسلام ، سفاح الأموال ودماء أهل الاحتلال ، من ربقة الدين بانتحال

صفة القناطر الى بئر العبد :

« ومنها توجهنا بوجه ناضر لنحو القناطر

ويحب الحبيب وجداً تخاطر وتخوض المياه أزعج خاطر
وتوسلت فى سبا ثم فاطر أن تجوز الربا بثغر للعواطر
ثم جئنا بئر الدويدار نسمى باجتهاد وللأوامر ندعى
وأتينا قطية وقطين ؟ ونزلنا الأولى بجد لنرعى

ثم قطعنا تلالا رملية، لا تخرج فى الأشكال الرملية، وأتينا (بير العبد) الآبق بفرط ملوحته ، عن منزل حلاوته وعذوبته، إذ الأصل فى المياه الجارية ذلك ، فمن تغرب عن وطنه فهو طريق الإباقة سالك

« ولما وصلنا المحطة ، وقلنا لدى بابها حطه ، بكت عيون السحاب، من غير انسكاب

صفة البريقات الى غاية يونس :

« ومنها سرنا إلى « البريقات » عندما لاحت البريقات ،

(٣) لعله عثمان باشا أبو طوق كان والياً للشام سنة (١١٧٧هـ)

وفاحت أطياب الأوقات من غير ميعاد وميقات ، حتى أتينا بعد ما سرينا (لعربش) والجناح منا بالوجد مريش ، ثم (الدعقة) الوحشة الرقعة والدعقة ، ومنها إلى (خان يونس) للوارد يونس وقلت فيه لشرب صافيه . مواليا

لما أتينا لخان عمره يونس بالأنس فزنا لأنو للغريب يونس
عوذته برآة هود مع يونس من شر قوم لئام ما بهم مونس

في غزة :

« ولما بلغ خبر قدومنا صديقنا الرئيس ، محمد بن المرحوم الرئيس محمد الخليلي ، ووالده صديق محمود ، ورفيق رفيق ودود ، فتلقانا ولديه أنزل وفي الإكرام أجزل ، وكذلك صديقنا الحاج محمد مكي (٤) ذو الود الزكي المكي ، وأولاده وأولاد ولده الذكي محمد جلبي ، وأرسل الأخ الممنوح انصياعا الشيخ إبراهيم بن صفر أغا بعد اجتماعه بنا هدية توجب ثبوت ما بنا وأصحبها ببيتين . (يقول له فيهما إنه لو كان لا يهديه إلى أن يرى شيئا على قدره ، لكان واجب أن يهديه سدرة المنتهى بأنوارها الخضر)

« وصليت الجمعة في جامعها القديم الجامع ، فرأيته يحتاج لعمارة ، كالبلدة التي برها المبرات جامع ، وبحرها بالمسرات هامع ، وهواها المدى لمرفها الندى لامع بكل حسن به القلب طامع ، وماؤها العذب السلسال ، يشفي العليل ويطفي الغليل من محب غير سال

نحو الرملة والى القدس

وفي ليلة السبت الأول من شهر رمضان المعظم توجهنا نحو الرملة والرئيس معنا ، وبتنا في فتوح مايه سدود لدى (قرية) سدود وزرنا سيدي سلمان الفارسي والمتبولي ، وعند الوصول إلى الرملة بتنا لدى مفتيها الخيري (السيد محمد) وفي ثالث يوم من شهر الصوم من يوم الاثنين أتينا الديار المقدسة فرحين بملاقاة قرة العين ،

ودخلناها قرب الغروب بقلب طروب . فلما دخلنا الباب أخبرت أن ابنتي علما متعرضة عن ألم رجلها ، وبعد السلام عليها والتملي بمحاسن محيها ، قالت لي : « يا أبتي قد تشوقت على » فقلت « يا بنية الأمر في هذا ليس إلي » ثم عرجتي في الشيخ نور الدين وقالت : « تسلم أنت يا أبتي فيه » فقلت : « وأنت تسلمي بجاه مصطفيه » وما زال مرضها الحزني يزيد ويمتد إلى ليلة الأحد ، التاسعة من شهر رمضان وفي سحرها الهنان بالأحزان سلمتها في يد جدها العتيق : وترجمتها في كراسة لما سقتني من الشراب الحمي كأسه ، وسميتها (النيوب الناجمة والغيوث المسجمة ، في ترجمة ابنتي المليحة قدرا سما ، الشريفة الصديقية البكرية علما) وذكرت رحلتها عنا في (الكمامة المرجسية الندسية في الاقامة الأنسية القدسية) . وكنت لما ورد هذا الوارد على أشغل القلب وأشمل اللب ، وحرك ساكن ما لدى فلم أتم هذه الرحلة إذ ذاك بل أخرته إلى هذا الشهر الشوالي

« وكان أرسل الأخ الأمجد محمد الحنفي المفرد لنا كتابا مصدرا بقصيدة محبة الأخ الشيخ محمد المغربي ، فنهب العقل وضاع الكتاب الفريد ، ولكنه أنشد لي أبياتا منها قصيد. فأجبته حالاً وكان ذلك ضحوة الأحد التاسع عشر من ذي القعدة سنة (١١٤٨هـ)

« ولما كنا في المنازل الكنانية وعد الأخ الشيخ محمد بزيارة الأماكن المقدسة ، قدم علينا في منتصف جمادى الثاني وصحب معه جملا من الهدايا منها الواهب لأخيه الداني ، فرأيت فيها ما ذكرته

« وكنت أرسلت له القصيدة السابقة من غير كتاب ، فلما توجه صديقنا السيد الكردي ، صحبته بكتاب إلى الأخ محمد الحنفي قلت له فيه : إن الشيخ محمد المغربي كان ورد علينا شكيا من نفسه ، وكان أضاع بعض أمتعته نهبا ، وأخذ خرجه الحاوي على القصيدة ، وأنشدنا بعض أبيات ، وقد حذونا أثركم وأرسلناها لكم ، ونهدي أخاكم الأكرم السلام ، وجميع من لديكم من إخوان

« وأرسلت لجناب وزير الشام سليمان باشا (المعظم) إلى دمشق ، كتابا في أواخر شوال ، وصدرته بأبيات حسان

(٤) من عائلة غزية ، كان حسين باشا بن مكي والياً للشام سنة (١١٥٥هـ)

وقد جاءني كتابه ، بعد السلام والدعوات ، بالحج المبرور

« أنه لما ورد العبد الديار الرومية رأى عموم أهل نامية ، والقلوب وجلة سامية ، من السفر العجمي حامية ، متواقرة الأشجان ، وغب حصول السلاح المطلوب على الوجه المرغوب ، صدر الإذن بالتوجه للقدس بعد الاستخارة ، وعاينا في البحر المالح تيسيرا ، وألفنا في السكنانة ، وعدنا إلى القدس »

« وبعد عودة جنابه من الحج وأداه نسك الحج والبيت ، أرسلت كتابا مهنئا بالسلامة ، وحصول الكرامة ، في منتصف صفر المبارك . كما أرسلت لحبنا الأمجد محمد جلبي بن مكي المفرد ، كتابا أهنئه بعوده للحمى ، كما أرسلت للصهر الجميل الشيخ إسماعيل النبيل كتابا ، وآخر سبق أضربت عن ذكره فقد من سبق »

الزيارة العليلية السنوية :

« ولما توجهت إلى الزيارة العليلية (مقام سيدي علي بن عليل العمري) في أوائل صفر المبارك ، وجرى على اللسان مدح سيدي (يامين) وكذلك من بجواره صاحب الإفاقة (سيدي سراقة)

« ولما حللت نابلس المحروسة نزلت في (الدرويشية) (٥) على جاري العادة جرى على الخاطر أول موشح لشيخنا الشيخ عبد الغني (النابلسي) :

(دع جمال الوجه يظهر لا تغطى يا حبيبي
كل شئ عقد جوهر حلية الحبس المهيب

فقلت مرتجلا :

أيها الصب المخبر نسبا بنت العريب
غب بها في الحب واسكر كاتم السر الغريب

« وأرسل مفتي السادة الحنفية ، داخل رملة فلسطين السيد محمد الخيري ، كتابا مصدراً بقصيدة مطلعها :

أشمس أفق بدت في دورة الحمل أم ومض برق تلاه صيب الحمل

وكتبت جوابا عنها ليلة وصولها قصيدة على وزنها :

سربي لسربي عسى أسق من العلل
وانعم بشربي ليشفي القلب من علل الخ

وأتبعها (أي المفتي) بديباجة إذ قامت في نفس يعقوب السر حاجة فقضاها ، وفاز بمقتضاها ، وكان أرسل مع ولده الكبير ، ولده الوسط والصغير ، وأمرهما بالانتساب ، وبعده طلب الوسط بهاء الدين (الخيري) وصية على ظهر كتاب الأوراد فكتبت له :

« وقبل أيام ورد كتاب من المحب الأخ الحفني ، يقول فيه : إنا عزمنا على التوجه لحرم أمنكم صحبة الأخوين المتوجهين إليكم فعاقت الأقدار عن اللحوق بهما من الطريقين ، وإن شاء الله نلحق بهما في منتصف ربيع الأول

« وكان قدومه منتصف جمادى الثاني (سنة ١١٤٩ هـ) وأقام لدينا مصحوبا بالظفر والتهاني إلى شوال المبارك وتوجه لوطنه

« وتحركت بعده منا الهمة إلى الحجة الموعود بها الفؤاد ، عقبه بثلاثة أشهر حيث الإذن وقع ، والشوق زاد ، وشرعت في الرحلة لتلك البلاد سحر يوم الاثنين الثالث من صفر المبارك الوصف والعين ، وفي هذا التاريخ شرعنا في الرحلة الثالثة المصرية والحجازية . والشامية ذات الإمدادات النصرية الإنجازية . والحمد لله

« تمت الرحلة »

سامح الخالدي

---

(٥) نسبة إلى درويش باشا . كان والياً لأيالة دمشق وعمر فيها جامعا . توفي ٩٨٧هـ وتولى درويش باشا آخر ولاية الشام سنة (١٠٤٥هـ)

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر ، بأسلوب قوي ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ، ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع اثنتي عشرة مرة في ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد